

ازدهار الحركة الفكرية في القدس في عهد  
المماليك  
شيّد السلاطين المدارس، وأسس العلماء والقضاة  
النهضة العلمية

محمد مهدي مراد

U

u

ازدهرت الحركة العلمية في مدينة القدس زمن المماليك، فتألق بذلك وجه المدينة الفكري إلى جانب وجهها الديني، وتمثل هذا الازدهار بتأسيس الكثير من المرافق العلمية والأدبية التي تنوعت بين مدارس ومساجد ومكتبات وخوانق ورباطات وزوايا... وتجسد النشاط الفكري في تدريس العلوم الشرعية، واللغة العربية والتاريخ والعلوم العقلية والعملية، كما تمثل في ظهور المفكرين والأدباء الذين ألفوا مصنفات في شتى العلوم والفنون، وأغنوا المكتبة العربية بعشرات المصادر في معارف متنوعة. كذلك تجسدت الفعاليات الفكرية في العديد من المجالس العلمية والأدبية التي نشطت فيها المناظرات بين العلماء، وخاصة في مواضيع الحديث والتفسير والأدب والخطابة.

## دور السلاطين والأمراء والقضاة:

- من الجدير بالذكر أن ازدهار الحركة الفكرية والعلمية في مدينة القدس، كان مبعثه ومحركه الفعال، عاملين:

الأول: الدور الهام الذي قام به سلاطين الأيوبيين ومن بعدهم سلاطين المماليك وأمرؤهم في تقدم العلوم والآداب، انطلاقاً من اهتمامهم ورعايتهم للمسجد الأقصى والصخرة الشريفة، حيث قام الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والناصر محمد، والناصر حسن بن محمد، والملك الأشرف شعبان والملك الأشرف أينال، والملك الظاهر خشقدم بترميم وتجديد معالم الأقصى (أبوابه، أرواقه، ثم قيام هؤلاء بإنشاء المدارس، ودور القرآن والحديث، وقد نسبت هذه المدارس إلى منشئها، وامتد اهتمامهم إلى المعالم الإسلامية الأخرى من حيث ترميمها وصيانتها وتجديدها، وقد أنفق السلاطين والأمراء على المرافق الدينية والعلمية بسخاء، واحتضنوا الحركة الفكرية، وكرموا العلماء والشيوخ وقربوهم، وفي هؤلاء من العهد الأيوبي السلطان صلاح الدين، الملك المعظم عيسى بن العادل، ومن العهد المملوكي كتبغا المنصوري، والناصر محمد بن قلاوون، والناصر حسن، والأشرف شعبان، والملك الظاهر برقوق، والملك المؤيد شيخ المحمودي، والملك الظاهر جقمق العلاني وغيرهم..

الثاني: إسهام القضاة والعلماء في تفعيل الحركة العلمية من خلال إنشاء الرباطات والزوايا والخوانق، وهي مؤسسات دينية وفكرية واجتماعية أدت دورها الفعال في سائر مجالات العلوم، كما كانت مراكز إعداد للجهاد، إضافة إلى دورها الديني والعلمي... ولقد اجتمع في هذه المرافق العلمية أفاضل العلماء وأكابر الشيوخ، وجهابذة القضاء من مدينة القدس نفسها، ومن الوافدين إليها من أرجاء العالم الإسلامي. ولم يكتف هؤلاء بالتعليم والتوجيه والإعداد، بل إن كثيرين منهم اشتغلوا بالتعليم تطوعاً، وأنفقوا عليه وعلى المتعلمين من أموالهم الخاصة، وقد وجد الوافدون إلى مدينة القدس للدراسة والتعبّد في المدارس والزوايا والرباطات والخانات مأوى يفيئون إليه، وينفق عليهم فيه من أوقاف واسعة من القرى والبساتين والدور.

### ● مدارس القدس:

#### ١ - مدارس أيوبية المنشأ:

— المدرسة الصلاحية: من أشهر مدارس بيت المقدس تقع داخل باب الأسباط في سور القدس، أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد تحرير القدس عام ١١٨٧/٥٨٣م، وأوقفها مدرسة على المذهب الشافعي في سنة ٥٨٨هـ وفوض تدريسها إلى القاضي بهاء الدين بن

شداد، وبلغ عدد الشيوخ الذين تولوا التدريس فيها ٣٦ شيخاً. منهم ابن شداد، شيخ الإسلام وقاضي القضاة، ومجد الدين طاهر بن جهيل إمام الفقه والفرائض، وفخر الدين ابن عساكر الدمشقي، وكان من أكابر علماء عصره، ومنهم شيخ الإسلام الحافظ تقي الدين أبو عمرو بن الصلاح وهو من كبار أئمة الفقه والحديث، وابن واصل الحموي الذي أسهم بدور هام في إحياء الحركة الفكرية في القدس، والقاضي محيي الدين الغزي، وشيخ الإسلام علاء الدين المقدسي، الذي تخرج عليه علماء أجلاء في بيت المقدس. ومنهم قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن جماعة الكناني الذي جمع بين التدريس في المدرسة الصلاحية والخطابة في المسجد الأقصى، ومن تولوا التدريس في المدرسة الصلاحية شيخ الإسلام شمس الدين محمد بن الجزري، وكذلك شهاب الدين بن الهائم الذي تفوق في الفقه والعربية والرياضيات، واجتمع عليه عدد من كبار العلماء وأخذوا عنه، ومن مدرّسي الصلاحية شيخ الإسلام شمس الدين الهروي، والقاضي عز الدين المقدسي من كبار العلماء المسلمين، درّس في الصلاحية الفقه والحديث والأصول.

— المدرسة النحوية(المعظمية): وتقع في أقصى الجنوبي الغربي من صحن الصخرة، أنشأها الملك المعظم عيسى ابن العادل الأيوبي سنة ٦٠٤هـ-١٢٠٧م، وأوقف عليها أوقافاً كثيرة، وخصصها لتعليم العربية وخاصة النحو، واللغة والأدب والبلاغة والعروض، ومن أبرز العلماء الذين تولّوا التدريس فيها: قاضي القضاة تقي الدين أبو بكر بن عيسى، وابنه علاء الدين المعروف بابن الرصاص.

— المدرسة البدرية: وموقعها بين شارع باب السلسلة وشارع السرايا، وقفها بدر الدين محمد بن أبي القاسم الهكاري ٦١٠هـ، في عهد الملك المعظم عيسى بن العادل الأيوبي.

— المدرسة المعظمية(الحنفية)، عند باب الدوادية، أمر بإنشائها الملك المعظم عيسى ٦١٤هـ، وكانت من المعاهد العلمية ذات الأثر البالغ في الحركة الفكرية في بيت المقدس، وكان ممن درّس فيها: القاضي شمس الدين محمد الديري، والقاضي خير الدين الغزي المعروف بابن عمران، وبلغ عدد من درّس فيها ١٥ عالماً، منهم الشيخ كمال الدين الشريحي، الذي درّس الفقه الحنفي والتفسير، والشيخ كريم الدين القرمانلي من أشهر علماء الحنفية، وشيخ الإسلام شمس الدين الديري مفتي بيت المقدس، درّس الفقه والحديث والمعاني والبيان، والشيخ سعد الدين الديري الذي درّس النحو والتصوف.

## ٢ - المدارس المملوكية:

— المدارس الدوادارية: وتقع عند باب شرف الأنبياء، شمال الحرم، واقفها الأمير علم الدين بن سنجر الداوادر سنة ٦٩٥هـ في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، درّس فيها قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة، وكان خطيباً أيضاً في المسجد الأقصى.

— المدرسة الوجيهية: وتقع عند باب الغوانمة، تنسب إلى منشئها وواقفها الشيخ وجيه الدين التتوخي إمام الحنابلة بدمشق وناظر الجامع الأموي، ودرّس فيها الشيخ عبد الرحمن الحنبلي.

— المدرسة السُّلامية: تقع عند باب شرف الأنبياء بجوار المدرسة الدوادارية، وتنسب إلى واقفها الخوaja (المعلم) مجد الدين السلامي سنة ٧٠٠هـ، وممن تولى التدريس فيها عدد من العلماء المغاربة أصلاً، المقداسة مولداً ونشأة ومنهم: شمس الدين بن خليفة المغربي، وولده كمال الدين إمام جامع المغاربة بالمسجد الأقصى.

— المدرسة الجاولية: في الجهة الشمالية من الحرم، وتنسب إلى واقفها الأمير علم الدين ابن سنجر الجاولي، زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون، أنشئت سنة ٧١٥هـ، وقامت المدرسة بدور هام في الحركة الفكرية في بيت المقدس حتى أوائل القرن التاسع الهجري، ودرّس فيها الفقه الشافعي والحديث.

— المدرسة الكريمة: تقع عند باب حطة جوار الحرم، وتنسب إلى واقفها صاحب كريم الدين بن المعلم وقفها سنة ٧١٨هـ، وقامت المدرسة بدور هام في الحركة الفكرية في المدينة ومن بينهم: الشيخ أبو عبد الله الغرناطي مدرّس المالكية، وشيخ الإسلام صلاح الدين العلائي وخير الدين القلقشندي.

— المدرسة التتكية: عند باب السلسلة بجوار المسجد الأقصى، وتنسب إلى واقفها الأمير سيف الدين تنكز الناصري أنشأها عام ٧٢٩هـ، ووقف عليها أوقافاً كثيرة، ومن أشهر شيوخها الإمام علاء الدين علي بن أيوب المقدسي، والشيخ صلاح الدين العلائي الذي درّس الفقه والحديث والتفسير والعربية وتخرج على يديه الكثيرون من العلماء، وكذلك الشيخ كمال الدين محمد المعروف بابن النقيب، وكان يلقب «خزانة العلم» درّس الحديث والفقه واشتغل بالقضاء..

— المدرسة الأمينية: تقع عند باب الأنبياء (باب الدوادارية) وتنسب إلى واقفها أمين الدين عبد الله، في عهد ناصر الدين بن قلاوون سنة ٧٣٠هـ، ودرّس فيها الشيخ برهان الدين الموصللي وقرأ الناس عليه التصوف وأخذوا عنه، ومن شيوخها عبد الملك الشيباني من

أعيان الزهاد بالقدس، والشيخ زين الدين القلقشندي الذي درّس الفقه والحديث، وصنّف في القراءات.

— المدرسة الملكية: وتقع شمال الحرم على يمين الداخل إلى الحرم، وتنسب إلى منشئها ملك الجوكندار الملكي الناصري سنة ٧٤١هـ في عهد الناصر محمد بن قلاوون وتولى التدريس فيها عدد من العلماء المقادسة والوافدين، ومنهم: أبو عبد الله الغرناطي والشيخ سراج الدين عمر شيخ المالكية بالقدس، درّس وافتي. والشيخ جمال الدين الأنصاري، اشتغل بالتدريس والقضاء.

— المدرسة الفارسية: وتقع شمال الحرم بالقرب من باب العتم، وتنسب إلى واقفها الأمير فارس البكي سنة ٧٥٥هـ، واشتغل بالتدريس فيها عدد من العلماء بينهم الشيخ زين الدين القبابي، الذي اشتغل بالحديث وأصوله.

— المدرسة الأرغونية: عند باب الحديد بجوار الحرم تنسب إلى واقفها الأمير ارغون الكاملي ٧٥٨هـ ومن أشهر شيوخها: علاء الدين بن النقيب الذي درّس الفقه الحنفي.

— المدرسة القشتمرية: تقع عند باب الناظر، جوار الحرم من جهة الغرب، وتنسب إلى واقفها الأمير قشتمر السيفي من أمراء الملك الناصر حسن سنة ٧٥٩هـ، ودرّس فيها الشيخ زين الدين القلقشندي، وأدت دوراً في الحركة العلمية ببيت المقدس.

— المدرسة الخاتونية: تقع عند باب الحديد — قبلي المدرسة الارغونية — تنسب إلى واقفتها: «أغل خاتون» بنت شمس الدين محمد، سنة ٧٥٥هـ.

— المدرسة الأسعدية: تقع في الجهة الشمالية من الحرم، وتنسب إلى واقفها الخواجا مجد الدين عبد الغني الاسعدي سنة ٧٧٠هـ.

— المدرسة المحدثية: تقع عند باب الغوانمة بجوار الحرم، تنسب إلى واقفها المحدث عز الدين الاردبيلي الذي اشتغل بالحديث الشريف ودرّسه فيها.

— المدرسة الحسنية: عند باب الأسباط شمال المسجد الأقصى، تنسب إلى واقفها شاهين الحسني سنة ٧٦٢هـ.

— المدرسة الكيلانية: في الجانب الشمالي من طريق باب السلسلة، أنشأها الحاج جمال الدين الكيلاني، سنة ٧٥٣هـ، وقامت بدور واضح في الحركة الفكرية في القدس.

— المدرسة المنجكية: عند باب الناظر غرب الحرم، وتنسب إلى واقفها الأمير سيف الدين منجك سنة ٧٦٢هـ زمن الملك الناصر حسن، ومن شيوخها: شمس الدين الديري — كان مدرّساً بالمدرسة المعظمية — درّس الفقه الحنفي وعلوم اللغة والشريعة، وخلفه عدد من شيوخ آل الديري.

- المدرسة الطازية: وتقع قرب باب السلسلة من جهة الشمال، وقفها الأمير طاز بن قطغاج، من أمراء الملك الصالح إسماعيل ٧٦٣هـ، ومن شيوخها: زين الدين القلقشندي، المدرس بالصلاحية ودرّس فيها الفقه والحديث والعربية.
- المدرسة البارودية: تقع عند باب الناظر، وتنسب إلى أبي بكر محمود البارودي، والد واقفتها «سفري خاتون» من ربات البر والاحسان، سنة ٧٦٨هـ.
- المدرسة الحنبلية: تقع عند باب الحديد، تنسب إلى منشئها ووقفها الأمير بيدمر الخوارزمي سنة ٧٨١هـ، وكانت تدرّس المذهب الحنبلي.
- المدرسة اللؤلؤية: تقع بجوار حمام علاء الدين جنوب المدرسة البدرية، تنسب إلى واقفها الأمير بدر الدين لؤلؤ غازي صاحب الموصل ٧٨١هـ.
- المدرسة البلدية: تقع بباب السكينة قرب باب السلسلة في الحرم، وتنسب إلى واقفها الأمير سيف الدين منكي بغا الأحمدى ٧٨٠هـ.
- المدرسة الطشتمرية: وتقع قبالة الطريق المؤدية إلى باب السلسلة، وتنسب إلى منشئها الأمير سيف الدين طشتمر العلائي ٧٧٥هـ.
- المدرسة الموصلية: تقع عند باب شرف الأنبياء شمال المسجد الأقصى، وتنسب إلى الخواجا فخر الدين الموصلية سنة ٧٩٥هـ، ومن شيوخها أبو بكر الشيباني الذي درّس فيها التصوف.
- المدرسة الجهاركسية: تقع بجوار الزاوية اليونسية، وتنسب إلى واقفها الأمير جهاركس الخليلي من عهد الملك الظاهر برقوق، سنة ٧٨٥هـ...
- المدرسة الطولونية: وتقع عند الرواق الشمالي للمسجد الأقصى، وتنسب إلى منشئها شهاب الدين أحمد بن محمد الطولوني، زمن الملك الظاهر برقوق سنة ٧٩٠هـ، وممن درّس فيها الشيخ تقي الدين الطولوني واشتغل بالتصوف سلوكاً وعلماً، والشيخ شهاب الدين أبو البقاء أحمد الزبيري.
- المدرسة الفنرية: تقع قبالة المدرسة الطولونية من جهة الشرق، أنشأها شهاب الدين الطولوني، منشئ المدرسة الطولونية ٧٩٠هـ، وعمّرها معها، وجعلها للملك الظاهر برقوق، درّس فيها عدد من العلماء بينهم الإمام شمس الدين الحنفي، وشهاب الدين الأنطاكي.
- المدرسة الصببية: تقع في جهة الشمال من الحرم القدسي، وتنسب إلى واقفها الأمير علاء الدين علي ٨٩٠هـ درّس فيها الشيخ شرف الدين حوس القادري، وكان لها دورها في إحياء الحركة الفكرية في بيت المقدس.

— المدرسة الكاملية: تقع بجوار باب حطة، وتنسب إلى واقفها الحاج كامل الطرابلسي في عهد الملك المؤيد ٨١٦هـ.

— المدرسة الباسطية: تقع جوار باب شرف الأنبياء شمال الحرم، وتنسب إلى واقفها القاضي زين الدين عبد الباسط الدمشقي سنة ٨٣٤هـ، وكان قد أنشأ عدداً من المدارس والمساجد بدمشق والقدس والقاهرة وغزة. وممن درّس فيها الشيخ شمس الدين المصري وهو من العلماء الأعلام، وكذلك شرف الدين بن العطار الشاعر والأديب والخطاط، وتقي الدين القلقشندي الذي درّس بالمدرسة الصلاحية وحدّث في بيت المقدس، واشتغل بالإفتاء.

— المدرسة الغادرية: تقع عند باب حطة شمالي ساحة الحرم، تنسب إلى واقفها الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر، في عهد الملك الأشرف برسباي سنة ٨٣٦هـ وقد عمّرتها زوجة الأمير ناصر «مصر خاتون» ومن مدرسيها الشيخ شمس الدين المقدسي المعروف بابن سعيد، والشيخ شرف الدين الرومي من كبار علماء بيت المقدس، درّس العلوم الشرعية واللغوية والعقلية، ومن شيوخها شمس الدين بن خليفة المقدسي الماكلي.

— المدرسة الحسنية: تقع بباب الناظر غرب الحرم، وتنسب إلى واقفها الأمير حسام الدين الكشكي سنة ٨٣٧هـ، ومن شيوخها تقي الدين أبو بكر الحسيني الوفاي — ابن أبي الوفاء — من كبار علماء بيت المقدس وعلم فيها اللغة العربية والعلوم الشرعية والتصوف.

— المدرسة العثمانية: تقع عند باب المتوضأ إلى الغرب من ساحة الحرم، تنسب إلى واقفها أصفهان شاه خاتون بنت الأمير محمود العثماني، في عهد السلطان الأشرف برسباي، وذلك سنة ٨٤٠هـ. درّس فيها: الشيخ سراج الدين الرومي، تفوق في علم المنطق والكلام والمعاني والبيان والنحو والصف، وابنه الشيخ جمال الدين الرومي الذي درّس وأفتى فيها حتى وفاته.

— المدرسة الجوهريّة: تقع عند باب الحديد، وتنسب إلى واقفها صفي الدين جوهر القنقباي سنة ٨٤٤هـ في عهد الملك الظاهر جقمق العلّائي. ومن شيوخها: الإمام شمس الدين محمد القباقي درّس القراءات والحديث، ودرّس من بعده ابنه برهان الدين المعروف بابن القباقي تصدر للتدريس والإفتاء والتصنيف، ومنهم الشيخ شمس الدين اليمني، والشيخ شمس الدين محمد الناصري، والشيخ كمال الدين ابن أبي شريف.

— المدرسة المزهرية: تقع عند باب الحديد، تجاه المدرسة الأرغونية، تنسب إلى واقفها زين الدين أبي بكر بن مزهر الأنصاري سنة ٨٨٥هـ... وكان من أفاضل العلماء، أنشأ العديد من المبرات والسبل والمدارس. قامت المدرسة بدور ناشط في الحركة الفكرية في القدس، وتجلت العناية بالفقه والحديث والتفسير والنحو.

— المدرسة الزمّينية: تقع غرب الحرم، تجاه المدرسة العثمانية، تنسب إلى واقفها شمس الدين محمد الزمّني الدمشقي المعروف بابن الزّمن سنة ٨٨١هـ..

— المدرسة الأشرفية: تقع غرب الحرم بالقرب من باب السلسلة، وتنسب إلى السلطان أبي النصر قايتباي سنة ٨٧٢هـ، وتولى مشيختها الشيخ شهاب الدين العميري.

زمن الملك الظاهر خشقدم، واهتم السلطان الأشرف قايتباي بالمدرسة وعيّن لها شيوخاً للتدريس، وصرف عليها من أوقاف وقفها عليها، وعقد المجالس الأدبية والعلمية فيها وكانت في المدرسة ثلاث خزائن للكتب، وقفت عليها مصاحف وكتب. ودرّس فيها الشيخ كمال الدين بن أبي شريف التصوف والعلوم الشرعية والعربية. وقد قامت المدرسة الأشرفية بدور مشهود في الحركة الفكرية في بيت المقدس، واستمرت تؤدي مهمتها حتى بعد انتهاء العصر المملوكي.

#### المصادر:

- ١ — الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل: ابن العماد الحنبلي...
- ٢ — الفتح القسي: العماد الأصفهاني
- ٣ — المفصل في تاريخ القدس: عارف العارف..
- ٤ — بلادنا فلسطين: مصطفى مراد الدباغ
- ٥ — معاهد العلم في بيت المقدس: كامل العسلي...

/ /